

في الأرياف والمدن أكسبه الكثير من المعرفة بأحوال الناس وأسباب حياتهم، وجعله أيضاً يتقن الكثير من الأمثال الشعبية الشائعة، والأعراف والتقاليد، وطرائق إدارة الحوار بين الناس وهم في حالات الصفاء والهدوء والتأمل أو في حالات الانفعال والغضب والعراك، كما أن دخوله إلى السجن مرات عديدة أكسبه معرفة واقعية بعوالم المملكة السفلية التي يعيش فيها أصناف من البشر أغلقت حياتهم باليأس. وكل هذا كان فعّالاً في النصوص التي كتبها سرفانتس، وأثرها باد بوضوح شديد، لكن الأشد قوة عليه كان يتمثل في مصيره الاجتماعي وعبوس الحياة بوجهه، فهو لم ينجح في زواجه، ورزق بابنة أورثته المتاعب، وبأختين إحداهما كانت شهوانية متعددة العلاقات والأمزجة، والثانية راهبة، أما الثالثة فقد أراحته بموتها المبكر، كما كان له ثلاثة إخوة ذكور طحتهم قسوة الحياة بفقرها وطلباتها الملححة، ففقد أحدهم في الجيش إذ كان يخدم معه في الكتيبة الأسبانية التي كانت ترابط في إيطاليا وقد أسر معه وسجن في الجزائر، ثم مات في إحدى المعارك. والثاني مات في سن مبكرة، أما الثالث فقد ظل عالمة عليه وعلى الحياة في آن معاً.

وسطوة العيش التي عاشتها أسرة سرفانتس، وحالات التنقل التي ورثها عن أبيه الطبيب أو لنقل الصيدلاني الجوال (الذي كان يطيب الجروح ويداويها، يمر بالبيوت والحارات ويعرض خدماته على الناس المحتاجين إلى المعالجة) كلها لم تكن أكثر سطوة من محاكم التفتيش وأشكال الاضطهاد التي عاشتها أسبانية آنذاك فقد كانت جماعات (الإخوة المقدسة) تسعى إلى فرض قوانينها وأعرافها المخولة بها من قبل الكنيسة على جميع الناس، وفي كل وقت وأن، وقد عرف المسلمون أشكالاً عديدة من الاضطهاد والتعذيب والظلم أدت إلى رضوخ فئات عديدة منهم إلى التنصر بالقوة من أجل البقاء قرب أملاكهم وأبنائهم. كما أدت إلى هرب فئات اجتماعية مسلمة إلى خارج حدود نفوذ محاكم التفتيش، وجولات رجال (الإخوة المقدسة)، وقد كانت رواية (دون كيشوت) واحدة من الأعمال الأدبية التي تعرضت إلى مثل تلك الحوادث الشائنة التي كانت تحدث فوق الأراضي الأسبانية دونما وجه حق أو عدالة (وتجدر الإشارة هنا، وفي هذا السياق، إلى أن اليهود تقاسموا مع المسلمين أشكال الاضطهاد والظلم، فقد تنصر عدد كبير من اليهود، ودخلوا في المذهب البروتستانتي، وبسبب من هذا الالتحاق اليهودي بالدين المسيحي احتاج سرفانتس إلى شهادة من كنيسة تثبت أنه من أصول مسيحية لا تشوبها أصول مسلمة أو يهودية، وتلك الشهادة كانت